الفصل الثاني: السّلام والعنف

لقد عَرّف الباحثون **السّلام** على أنه غياب الحرب. ومن الناحية الفنيّة فإنّ هذا صحيح؛ إذ حينما لا يكون هناك صراع مسلح في مجتمع، فإنّ حالة السلم تقوم على نحو تلقائيّ بخلق نفسها. ومعَ هذا، فإنّ تأسيس السلم في مجتمع لا يكون فقط بوضع حدّ للحرب والعنف، وإنما هـذا يعدّ المرحلة الأولى في تحقيق السّلام. وكلّما حلّ السّلام في مجتمع بالمعنى الحقيقيّ، فإن أفراده ينخرطون في نشاطـات إيجابيّة، ينجم عنها توجيـه كلّ طاقاتهم في سبيل إعادة بناء حياتهم الخاصّة وبناء بيئتهم الاجتماعيّة.

إنّ تأسيس السّلام يمكن تشبيهه بإزالة سدّ من النهر؛ فحياة البشر تكون كنهر متدفق يريد أن يتدفق قدمًا بقوة دفعه الخاصّة، وحينما لا يكون هناك أيّ عائق فإنّ نشاطـات الحياة جميعها تدبّ فيها الحركـة، تدفعها الطبيعة البشريّـة نفسها، وتتوقـف هذه الحركة فقـط حينما تلقي الحـرب والعنف حواجزهما المصطنعة أمّامهم. إنّ السّلام من وجهة نظر نتائجه يشبه فتح أبواب الحياة كاملة على مصراعيها.

وفي هذا السياق، فإننا نجد بعضهم يسمّون هذا النوع من السّلام سلبيًّا، فيقولون إنّ السّلام لا قيمة له ما لم ترافقه العدالة. وهؤلاء إذا عرضنا عليهم السّلام نقيًّا وبسيطًا فإنهم لن يقبلوا به؛ إذ هم يتمسكون بفكر أنه لا بدّ من تقديم العدالة أولاً، ومن ثَمّ الحقوق. وفي المحصلة، فإنّ هؤلاء يستطيعون العيش بسلم معَ الآخرين؛ إذ إنّ «السّلام معَ العدالة» هي كلمة سرّهم. وحقيقة الأمر أنّ هذا يظهر نقصًا في واقعيّة تفكيرهم؛ فالعدالة لا تتحقّق مباشرة من

belkanar.com

حالة السلم؛ لأنّ هدف تأسيس السّلام هو، في الحقيقة، فتح قنوات لتحقيق العدالة بدلاً من جلب العدالة على نحو واقعيّ إلى حيّز الوجود.

وبالتأكيد، فإنّ السّلام حالة نرغب في وجودها؛ إذ بحلولها تصبح الفرصة مواتية لكلّ شخص ليضع خططه، وينجز ما يشاء. لكنّ أولئك الذين يصرّون على العدالة كشرط يترافق مـعَ السّلام لن يتوصلوا لا للسـلام ولا للعدالة، وسيستمرّون في القتال تحت مسمّــى تحقيق العدالة. وبهذه الطريقة فهم لا يسمحون بإحلال السّلام الذي سيزوّدهم بالظروف المناسبة لتحقيق العدالة.

يُدْرَسُ السّلام عمومًا على أنه نقيض الحـرب. علمًا أنّ هذا مفهوم ضيّق للسلام؛ إذ إنّ الحقيقة هي أن السّلام ينتمي إلى طيف الحياة الكامل، إنه في حدّ ذاته يعّدّ عقيدة كاملة؛ فهو المفتاح الرئيس الذي يفتح كلّ الأبواب أمّام النجاح، ويمهّد الطريق للجهود المخلصة في كلّ الأطياف؛ إذ إننا نستطيع في حالة السّلام أن نتعامل معَ أي هدف، ومن غير السّلام فإنه من المستحيل أن نمضي على نحو بنّاء، وهذا ينطبق على مجالات الحياة جميعها؛ الكبيرة منها والصغيرة.

الفرق بين السّلام والعـنـف

إنّ السّلام هو نتيجة لأفعال تمّ التخطيط لها، بينما العنف -وبكلّ بساطة- ما هو إلا ردّة فعل عدائيّة لأيّ نوع من الاستفزاز. والشخص المحبّ للسلام يمثل الحقيقة، ويعيش وحبّ الآخرين يملؤ قلبه، وهو يفكر أولاً ثم يتصرّف، بينما يمثـل الشخص العنيـف الباطل، ويستهلـك حقدُه علـى الآخرين كلَّ مشاعره، ويتصرّف أولاً ومن ثَمّ يفكر. وكذا فإنّ الأمل يرافق العمل السلميّ

من البداية إلى النهاية، بينما يترافق العنف معَ أمّال غير صحيحة نبتدئ بها ولا يتبعها عاجلاً إلا الإحباط.

وطريق السّلام تتبنّى طريقًا مستويًا مـن البداية إلى النهاية، بينما يكون طريق العنف مبعثرًا ومليئًا بالعوائق. والسّلام إنّما يحتوي على البناء، بينما لا نجد في العنف غير الدمار. أضف إلى ذلك أنّ السبيل السلمي ينتهي بالنجاح، بينما لا يحصد السبيل العدائيّ إلا الندم والإحباط.

وخلاصـة الأمـر أنّ طريـق السّلام هـي طريـق الإنسانيّـة، بينما طريق العنـف هـي طريـق الوحشيّـة. ففـي حيـن يكـون الفعـل السلمـيّ مقبولاً ضمن إطار القانـون، فإنّ الفعـل العنيف يكـون خارجًا على القانـون كليًّا. وبذا، فإننـا بلجوئنـا إلى الوسائـل السلميّـة لن نخسـر شيئًا، بـل سنربح كلّ شـيء، والخسـارة إنّما هـي فـي الوسائل العدائيـة التـي لا ينجم عنها إلا كلّ شرّ وسوء.

وهكذا، فإنّ الشخص المحبّ للسلام يهمل المشكلات، وينتفع من الفرص المتوافرة، بينما يتـرك الشخص المحـبّ للعنف كلّ الفرصـ، ويستمرّ في صراعه معَ المشكلات. وبينمـا نجني من السلم حديقة مـن الزهور، فإننا باتباعنا أعمال العنف نزرع غابة كاملة من بذور الحقد والكراهية.

وباختصار، فـإنّ ثقافة السّلام هـي ثقافة الخير، أمّـا ثقافة العنف فهي ثقافة الشرّ؛ ففي السّلام نكرّم حقوق اللّه وحقوق البشر، بينما تُنتهك حقوق اللّه وحقوق البشر حيثُ ينتشر العنف. وبذا، فـإنْ كان السّلام فردوسًا فإنّ العنف هو الجحيم.

ولمّا كانت سبل السّـلام والحرب المتعاكسة مفتوحة أمّـام الإنسان، فإنّ السّلام هو الخيار الحقيقي له؛ فالحرب ليست إلا دليلاً على أنه اتخذ الخيار غير الصحيح، ممّا يعني أنه قد فشل في هذا الاختبار. وعليه، فالحقيقة هي أنّ الحرب والعنف ليسا خيارين صالحين لأي فرد أو مجتمع أو أمة.

وعلى الرّغم من أنّ العالم يتوافر فيه العديد من الإغراءات، فإنّ الحقيقة التي لا خلاف فيها أنّ تلك الإغراءات موجودة لتضع الإنسان تحت الاختبار؛ لذا فإنها ليسـت مرغوبة للإنسان. فعلـى سبيل المثال، الكحـول متوافرة، ولكنها ليست متوفرة لاستهلاك البشـر، بل هي على العكس موجودة لنمتنع عن معاقرتها، ولنثبت قدرتنا على التمييز بين ما هـو خير وما هو شرّ. إنه إغراء، نثبت إذا تجاوزناه أننا حكماء، ونؤكـد كوننا رجال مبادئ. والشيء نفسه ينطبـق على الحـرب، فبالرّغم مـن أنّ طريقها مفتـوح للجميع، فإنّ السلوك الأنبل يكون بالامتناع عن اختياره.

لقـد سمحت الظـروف السائدة قديمًا بالحـرب دفاعًا عـن النفس، لكن هذه الرّخصة في الذهاب إلى الحرب توافقت معَ الضرورة. أمّا في الظرف الحاليّ، فإنّ هذه الحاجة لم يعد لها وجود، ولهذا لا بدّ من فرض حظر عام على الحرب.

الفرق بين العصر الزراعيّ والعصر الصناعيّ

وفي ما يخصّ الحرب، فقد اتفقـت كلّ الديانات والأنظمة العقائديّة على مبدأ واحد هو أنه ومهما كان المبرّر لشنّها؛ أي حتى لو كانت حربًا مشروعة تمامًا، فإنّ المدنيين يجب ألا يتمّ الاعتداء عليهم أو قتلهم؛ إذ إنّ قتل من لا يحمل السلاح هو شيء غير مقبول نهائيًّا.

دعونا الآن نلقي نظرة على كيفيّة تنفيذ هذا المبدأ في وقت الحرب. إنّ هذا الشرط؛ أي مهاجمة المسلحين فقط، يمكن إنجازه فقط في العصر الزراعيّ. فاليوم، وبفضل التقدّم العلميّ التقنيّ، فإنّ الحرب تشنّ بأسلحة متفجّرة تؤدّي إلى دمار شامل. فحينما نسقط قنبلة على منطقة مأهولة فإنها لا تملك إلا أن تقتل أعدادًا كبيرة من المسلحين وغير المسلحين. ومن ثَمّ فمن المستحيل تقريبًا تحقيق هذا الشرط.

إنّ هذا يظهر عمليًا أنّ الإنسان في الوقت الحالي أمّام خيارين: فهو أمّا أن يمتنع عن الحرب على أساس أنّ شرط احترام الإنسانيّة لا يمكن تطبيقه، أو أن يرتكب الجريمة ملقيًا نفسه بتهوّر في الحرب متجاهلاً كلّ الاعتبارات الإنسانيّة. وحين نغوص عميقًا في المسألة فإننا نكتشف حقيقة مهمّة؛ ففي الوقت الحالي نجد من جهة أنّ هذه الظروف لا تسمح لنا بتلبية كلّ الشروط المرغوب فيها لشنّ الحرب، بينما ومن جهة أخرى، فإنّ مثل هذه الموارد قد أتيحت بسبب الثورة الصناعيّة لتسمح لنا بتحقيق أهدافنا بوسائلَ سلميّة نقيّة. وبالفعل، فإننا نتوقع أن نكسب انتصارات كبيرة اليوم بوسائلَ سلميّة أكثر ممّا كان يمكن تحقيقه بشنّ الحرب في أوقات سابقة. لذا، فإنه يجب التسليم بأنّ الحرب كما كانت تُخاض قديمًا قد باتت غيرَ ذاتِ جدوى بسبب الثورة الصناعيّة الحديثة.

عندما نضع هذه الحقيقة الماثلة أمّامنا، يمكننا وبأمّان أن نخلص إلى أنّ الحرب العنيفة كانت نتاج الظروف التي كانت سائدة في العصر الزراعيّ. وهذا النوع من الحرب في العصر الصناعيّ، ونظرًا إلى النتائج العكسية، فقد كان مرفوضًا من حيثُ المبدأ.

ومعَ نهاية العصـر الزراعيّ، فإن طريـق النضال العنيف قـد وصلت إلى نهايتها على الأقلّ نظريًّا، وفي ظلّ الظـروف الراهنة، فإنّ الأسلوب السلميّ هو الأسلوب الوحيد، والآن لا يوجد عذر يبرّر العنف أو الحرب.

يتّضح الفرق بين السّلام والعنف بجدارة عن طريق بناء عشّ طائر؛ فالعشّ لا يتمّ بناؤه إلا من خلال جهد سلميّ، بينما يدمّـره العنف. وينطبق الشيء نفسه على الحياة البشريّة.؛ فإذا أردنا إنجاز أيّ عمل خلاق في الحياة فلا بدّ من جهود سلميّة للقيام به. وبـذا، فإنّ العنف يدمّـر الحياة ولا يستطيع بناءها أبدًا.

ثمـن السّلام

لكلّ شيء ثمنه، حتى السّلام؛ فإنه لا يستطيع أيّ فرد أو جماعة الحصول عليه ما لم يكونوا مستعدين ليدفعوا له مقدّمًا. إنّ القابليّة لفعل هذا لا بدّ لها من معاناة، وحتمًا أنه سينجم عنها خسائر.

بناءً على القانـون الذي يحكم نظـام العالـم الحاليّ، وَوَفقًـا لقاعدة «لا مخاطرة لا مكسب»، فمن الضروريّ للناس أن يتكبّدوا الخسائر من مختلف الأنواع. ففي أوقات نراهم وعلى نحو غير عـادل يلقون تحدّيًا من الآخرين؛ فيقعون فريسة للصعوبات الاقتصاديّة، ويعانون خسائرَ في الأرض والمال، ويتعرّضون إلى حادث أو يُحرمون من بعض المنافع التي هي في الأصل حقّ لهم، وهكذا.

إنّ التجارب غير السارّة من هذا النوع، وَوَفقـا لقانون الطبيعة، يختبرها الناس بين الحين والآخر في هذا العالم، من أفراد ومجتمعات وأمم. وإذا لم

يكن للناس قابليّة في مثل هذه الظروف لتحمّل الخسارة، فإنّ النتيجة ستكون هي العنف. ولكن، إذا كانت لديهم القابليّة لتقديم التضحيات، فإنّ النتيجة حتمًا ستكون السّلام.

إنها في الحقيقة خطة نحو المستقبل، تصل إلى حدّ طوعيّ لتقبّل الواقع، ممّا يعني أنه وحتى بعد فقدان شيء ما فعلى الإنسان أن يتذكّر دائمًا أنه ما زال يمتلك الكثير من الأشياء، التي من خلال استعمالها سيبني ذلك الشيء من جديد.

إنّ فائدة الصبر والتسامح هي، وحتى بعد تكبّد الخسائر، أنّ الشخص المثكول لا يفقد توازنه. وعلى الرّغم من الهزيمة المؤقتة، فإنه لا يفقد القدرة على التفكير بذهن صافٍ، عن طريق إجراء تقييم واقعيّ لوضعه، والتخطيط لحياته من جديد. وبوساطة نسيان ما ضاع منه، فإنه يعيد تنظيم عمله على أساسِ ما زال يملك.

وينهي الإحباط الفخر بالمكان، ليبدأ من ثَمّ التخطيط، ويضع الشخص نفسه في طريق رحلة جديدة لبدء حياته من جديد. إنّ الميزة الموثوقة التي يمكن الاعتماد عليها في عالمنا هي أنّ الليل دائمًا يتبعه النهار.

إنّ هذا العالم مليء بالاحتمالات والفرص. فهنا، وبعد فقدان فرصة واحدة فإنّ الإنسان سيجد أخرى. وهنا، وعندما يجد بابًا مُوّصَدًا في وجهه، فإنه سيجد أبوابًا أخرى مفتوحة أمّامه. هنا، وفي هذا الطريق، وهناك دائما احتمال أنه وبعد فشل مجموعة من الخطط المُعدّة، فإنه قد يباشر العمل في آخرى وفي بناء حياته من جديد. والحقيقة التي لا خِلاف عليها في هذا العالم

أنّ كلّ خبر سيء تتبعه أنباء جيّدة. فكلّ حادث ضارّ يعطينا بشائرَ جيّدة بأننا يجب ألا نقع ضحية للإحباط واليأس.

بدلاً من هذا الإحباط وذلك اليأس، فإنه يجب علينا أن نستجمع ما يكفي من الشجاعة للبحث عن الجديد من الفرص. إنّ نظام الطبيعة يخبرنا مقدّمًا أنّ الحرمان لدينا لن يدوم إلى الأبد، وقريبًا سوف نكون قادرين على بناء عالم أفضل لأنفسنا، وقريبًا أيضًا سوف تكون هزيمتنا بداية انتصار. إنّ أولئك غير القادرين على تحمّل الخسائر يميلون إلى التفكير السلبيّ، وبهذه الطريقة فإنّ حياتهم تصبح عبئًا عليهم وعلى الآخرين. وعلى العكس من ذلك، فإنّ أولئك الذين يمتلكون الصبر ولديهم الشجاعة حتمًا سيبنون صرحًا جديدًا على أنقاض الماضي؛ فبعد الليل يأتي الفجر، الذي سيتمكنون من أن يكملوا رحلتهم في ضوئه ومن غير استراحة. ومعَ ذلك، فإنّ هذه الغاية النبيلة تنتظر فقط أولئك الذين يمتنعون عن العنف وينخرطون في نشاطات سلميّة، بغضّ النظر عن الظروف.

السّلام قوّة عظمى

إنّ قوّة السّلام أكبر بكثير من قوّة العنف، ومن لا يدرك هذه الحقيقة فإنه يعتمد مسار العنف من أجل تحقيق أهدافه، ويكون بذلك معبّرًا عن غبائه الشخصيّ.

إنّ السّلام هو طريق الحكيم، في حين أنّ العنف هو طريق الأحمق. والسلم والحرب ليسا مجرّد وضعين متساويين للإنجاز بالمعنى البسيط للعبارة، بل إنهما يعكسان معيارين مختلفين للإنسانيّة. وعليه، فإنّ الذي يعتمد طريق

السّلام يرفع مستوى الإنسانيّة، بينما الذي يتبنّى طريق العنف يخفضه بلا شكّ.

وفي لحظات الأزمة، وعندما يختار الفرد طريق السّلام، فإنه يجني التفكير الإيجابيّ، ويرفع معاييره الأخلاقيّة، ويذهب من قوّة إلى قوّة في تحسين شخصيّته الخاصّة. وفي الواقع، فإنه يعطي دليلاً عمليًّا على كونه إنسانًا. وعلى العكس من ذلك، عندما يختار طريق العنف في حلّ المشكلات، فإنه ينزلق أسفل منحدر زلق نحو الهلاك، ويجعل من الواضح جدًّا أنه مشتبه به كإنسان.

إنّ الميل نحو السّلام أو العنف يُعَدّ مؤشرًا على شخصيّة الإنسان الحقيقيّة؛ فإذا أثبتت الأولى أنسانيّة الشخص، فإنّ الأخيرة تثبت وحشيّته كحيوان رغم مظهره كإنسان.

إنّ السلوك المسالم يدلّ على ضبط النفس، وضبط النفس هو بلا شكّ قوّة كبيرة جدًّا؛ فهو يبعد الإنسان عن المشاركة في نشاطات سلبيّة، مثل العنف. ومن لا يملك قوّة ضبط النفس، سيغضب إذا تعرّض لاستفزاز، ويلقي بنفسه في أعمال العنف. وبذا، فإنّ السيطرة على غضب المرء هو السبيل لشخص سلميّ، في حين أنّ فقدان سيطرة المرء على نفسه عند الاستفزاز هو السبيل لشخص عنيف.

المصالحة هي الأفضل

في أيّ جدل دائر، تكون الطريقة الوحيدة للتسوية لكلا الطرفين في الدخول في مواجهة عنيفة. إنّ أفضل طريقة لتسوية النزاعات هي في إحداث

المصالحة في البداية؛ كون المصالحة تعدّ صمام الأمّان في أيّ حالة فيها مصالحُ متضاربة، وحيث تكون الأعصاب على وشك الانفجار. ولذلك، وفي أوقات الاستفزاز، فـإنّ أفضل مســار للتبنّي هو التصالحيّ بـدلاً من مسار المواجهة. إنّ هذا هو قانون الطبيعة. ومعَ ذلك، فإنه نادرًا ما يحدث أنّ مثل هذه المصالحة تعكس تمامًا رغبات كلّ من الطرفين.

في غالبية الحالات، فإنّ المصالحة تكون ممكنة فقط على أساس من جانب واحد. ممّا يعني أنّ على فريق أن يقمع ميوله الخاصّة، ويظهر استعدادًا لوضع حدّ للنزاع وَفقًا لرغبات الطرف الآخر.

لماذا يكون هذا النوع من المصالحة من جانب واحد أفضل؟ إنّ الفائدة الرئيسة هي أنه ومن غير إضاعة الطاقة والوقت في مشاحنات لا لزوم لها، فإنّ الإنسان قادر على تحمّل مسار عمل بنّاء، في حين أنّ حالة المواجهة تضع حَدًّا لكلّ نشاط من هذا القبيل.

ويظهر التاريخ أنّ أيّ نجاح على مستوى الفـرد أو المجتمع قد تمّ إنجازه باعتماد أسلوب التصالحيّة، فمسار التصادم والمواجهة لم يؤدِّ إلى أيّ نجاح حقيقيّ في هذا العالم. وبذا، فإنّ المصالحة أمر حيويّ لأنها تعطي الإنسان الفرصة المتاحة للإفادة مـن الفرص المتوافرة إلــى أقصى حدّ، في حين تؤدّي المواجهة إلى توجيه طاقاته كلها للتخطيط لتدمير الآخرين. ومن ثَمّ فإنّ أعمال البناء لم تكن مدرجة هنا، رغم أنّ سرّ النجاح الحقيقيّ يكمن في البناء والتوحيد بدلاً من تدمير الأعداء المفترَضين.

يبرّر الكثيـر من النـاسـ العنـف بقولهـم إنهم كانـوا ضحيــة للدسائس والمؤامرات، وكان لا بد لهم من وضع حدّ لذلك بالقتال. وهذا العذر لا يرتكز

على أيّ أساس من الصّحة؛ فما يُنظر إليه كمؤامرة هو في الواقع العمليّ مظهر من مظاهر خطة الطبيعة، التي تأسست في العالم الحالي كقانون طبيعيّ.

في العالم الحالي، لا تكمن المشكلة الحقيقيّة لأي مجتمع في أنّ له أعداء يتآمرون ضدّه، بل في أنّ ذلك المجتمع فشل في تطهير نفسه من الضعف الذي يزوّد الآخرين بفرصة للاستكشاف. إنّ حالة السّلام المستقرّة تكون ضمانًا ضدّ هذا النوع من الاستغلال؛ فالعنف يعني أن نجعل أنفسنا غير آمنين عن طريق كسر خطّ الدفاع.

obeikandi.com